الفصل الثالث

الجن والملائكة فى المعتقد الدينى

هذه الجولة السريعة فى عالم الجن والملائكة فى المعتقدات الدينيـــة المختلفة مقدمة لابد منها اذا كنا نتفق على أن المعتقدات الشعبية ليست فى نهاية الامر سوى الوعاء الذى ترسبت فيه آلاف المعتقدات المتجمعة من الديانات البدائية القديمة التى عرفها هذا الشعب وتطابقت وأفكاره وتصوراته البدائية ــ ذات الطبيعة السحرية ــ عن الكون والنـــاس • وظلت على ثباتها تنتقل بالمشافهة جيلا بعد جيل ، لا تهن ولا تضعف رغم محاربة الدين الرسمى لها ومعارضته لاسسها • وكان عامل اســـتمرارها الاول انها أكثر مناسبة لفكر جماهير الشعب (التى لم تنل الحظ الكافى من الثقافة الرسمية) وأكثر اشباعا لمطالب حياتية ملموسة لا تحلق بهذه الجماهير ــ التى تلتمس رزقها يوما بيوم ــ فى آفاق التجـــريد والمطلق واللانهائى الخ • آية ذلك أنه كلما زاد مستوى هذه الجماهير تخلفا كلما زاد حظها من المعتقدات الشعبية الخرافية ، وكلما ضربت هذه المعتقدات بجذورها الى طبقات أعمق وأبعد من مراحل التطور الدينى الذى شهده المجتمع(١) •

اذا أردنا أن نتصور ترتيبا للكائنات التى تعيش فى العالم من وجهة نظر المعتقد الدينى ، لقلنا من باب التبســـيط انه دون الآلهة ــ أو الله

---

(١) عن موضوع المعتقدات الشـــعبية ، تكوينها وخصائصها ، انظـــر جوستاف منشنج ، علم الاجتماع الدينى ، الطبعة الثانيـــة ، بون ، ١٩٦٨ ، الفصل الثالث خاصة صفحة ١٧١ .

(G. Mensching; Soziologie der Religion).

وكذلك كتـــاب « الدين » لنفس المؤلف ، ص ص ٣١٩ ــ ٣٢٠ ومادة خرافات Aberglaube فى قاموس الاديان لبرتوليت ، الطبعـــة الثانيـــة . شتوتجارت ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢ ــ ٣ :

A. Bertholet; Woerterbuch der Religionen.

الواحد ــ الذين خلقوا أو هم يخلقون هذا العالم بما فيه ، هنـاك طبقة الكائنات الروحية (أو الروحانيون) أو الملائكة ، تليها طبقة الجن (أو العفاريت ، أو الشياطين) أو الارواح الشريرة ، ثم يليها جميعا : الانسان الذى يتميز بوضع خاص ينفرد به عن هذه الكائنات جميعا • فهو بجسده وروحه ينتمى الى عالمين : العالم الظاهر ، والعالم الباطن غير الظاهر • وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله اعتبر الانسان ــ بفضل جمعه بين الطبيعة المادية والروح ــ « تتويجا لخلق الله » • على أن الانسـان لا يجمع بين جنباته العالمين الظاهر والباطن فحسب ، وانما هو يجمع كذلك بين الالهى والشيطانى • وقد حفلت الاسـاطير الدينيـة ــ ومعها ومن بعدها ــ الحكايات الشعبية بالكثـير من ألوان تصـوير هـذه الطبيعة المزدوجة •

ولنعد الى الملائكة أو الكائنات الروحية الطيبة • فنجدها من حيث المرتبة دون الآلهة منزلة ، وفوق الانسان بكثير • وتصادف الكائنات العليا حتى لدى أدنى الشعوب حضارة محاطة بأسرة معينة ــ أو ما نطلق عليه بمصطلح اليوم بلاطا • كما كان لدى كبار الآلهة السـومرين الاكاديين حاشية كبيرة العدد • ثم نجد هذا العدد ينخفض الى سـبعة فقط (هم الخالدون المقدسـون) المحيطون باهورا مزدا ، والذين يمكن أن نطلق عليهم بالمصطلح المسيحى « كبار الملائكة » • أما الديفا Deva فى الديانة البوذية فيحتلون مكانا خاصا • اذ هم من حيث الطبيعة كائنات روحيـة عليا ، تحيا حياة روحية خالصة فى السـموات المختلفـة ، لكنها فى نفس الوقت تشارك فى حياة البشر ، وخاصة حياة بوذا نفسه • فهم بهذا المعنى « ملائكة » بالمعنى الحق للكلمة •

ثم هناك الى جانب الملائكة المحيطين بالآلهة وعروشـهم الملائـكة الحارسون الذين يمدون يد المسـاعدة للناس • ومن أمثلتهم الشـيدو واللاماسو عند البابليين الذين كانوا يصورون فى هيئة ثيران ، ويقومون على حراسة المعابد والبيوت ، والفرافاش عنـد الايرانيين ، الذين كانوا فى الاصل أرواح موتى • ولا يقتصر واجبهم على حماية الاحياء ، وانما

على حراسة الخلق المقدس كله من الارواح الشريرة (أو الشياطين)(٢) •

على أن المعتقدات والافكار الدائرة حول الجن قد حظيت بأكبر قدر من النمو والتعقيد فى ظل العقائد اليهودية والمسيحية والاسلامية • فهنا نجد الملائكة خدام العرش (وأبناء الله عند اليهود) ، وهم فى نفس الوقت رسله الى البشر ، والقائمون على حماية هؤلاء البشر وتقديم العون لهم ، والشفاعة لهم عند الله • ثم كان من نتائج التسامى الكبير الذى أضفى على مكانة الله فى المرحلة اليهودية السابقة على ظهور المسيحية أن نمت وتطورت الى مدى أبعد التعاليم الخاصة بالملائكة • وبدأ اليهود يميزون جماعات متباينة من الملائكة ، بل وبعض شخصيات الملائكة ذات أسماء محددة معروفة مثل : ميكائيل ، وجبرائيل ، وروفائيل ، وأوريل • وفى العهد الجديد (الانجيل) أصبحت الملائكة تؤدى وظيفة أخرى اذ تقوم بمرافقة المسيح فى يوم الحساب • والملائكة هنا هم الذين يلقون روح الانسان عند الموت • ولما كانوا — باعتبارهم كائنات روحية — لا يتمتعون بالحرية ولا يستطيعون تحرير أنفسهم ، فقد أصبحوا المثل الاعلى الذى يحتذيه الرهبان المسيحيون • وكان من آثار كل هذا وغيره ان نمت وتطورت فى ظل المسيحية أيضا التعاليم المتصلة بالملائكة والدائرة حولهم• وكان التصور المسيحى للملائكة — فى أوائل العهد المسيحى — متأثرا باليهودية فى اعتبارهم كائنات ذات تجسد من نوع خاص وفريد : رقيق شفاف اشعاعى (بسبب علاقتهم بالكواكب) أو نارى (وهذا تفسير اللون الاحمر لملابسهم على الصور المرسومة على الايقونات الاغريقية) • ثم تبع ذلك تقسيم الملائكة الى تسع فئات (ملائكة ، وكبار ملائكة ، وملائكة عروش ، وممالك وقوى •• الخ) وأصبح الملائكة من الموضوعات

---

(٢) انظر فقرة « الملائكة عند : فريدريش هايلر » « الدين والظواهر الدينية » H. Heiler; Erscheinungsformen und Wesen der Religion; Stuttgart; 1961; p. 474.

والمراجع العديدة الواردة هناك . وكذلك مادة « ملائكة » فى قاموس برتوليت ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

المحببة فى أساطير القديسين والفنون المسيحية بأنواعها • ثم كان ما كان بعد ذلك من تصدى حركة الاصلاح الدينى لهذه المبالغات فى الاعتقاد فى الملائكة الذى كان ضاربا أطنابه فى الكنيسـتين الغربيـة والشرقية على السواء • وان كانت الصياغة الجديدة للعقيدة البروتستانتية قـد عادت فعدلت من هذا الموقف الشىء الكثير • ربما ازاء التمسك الشديد بهـذه المعتقدات حتى فى الآداب الكلاسيكية والرومانسية معا(٣) •

أما عن الافكار والتصورات المتصلة بالملائكة فى الاسلام ، فكثيرا منها وثيق الشبه بنظائره اليهودية والمسيحية(٤) • فالملائكة مخلوقون من مادة نورية شفافة ، مقسمون الى سبع فئات ، يسـبحون الله من الازل الى الابد • هم غارقون فى هذا التسبيح والتمجيد ، ليسـت لهم ارادة مستقلة : تسعة عشر منهم يحرسون النار ، اثنان منهم أو أربعة يحرسون الانسان ، اثنان منهم الكاتبان جالسين على كتفيه يسجلون أفعاله خيرها وشرها • وعلى رأس هؤلاء الملائكة جميعا جبريل الذى حمل الوحى الى رسول الله ، ومعه ميكائيل المتسلط على القوى الطبيعية ، واسرافيل ، وعزرائيل ملاك الموت ذو الاربعة آلاف جناح •

والى جانب هذه الارواح الطيبة الخيرة نجـد الارواح الشريرة : من جن (مع أخذنا فى الاعتبار أن الجن منها الخير ومنها الشرير كمـا سيتضح فى مكان آخر) ، أو شياطين ، أو عفـاريت •• الخ • وهم فى الاصل أما أرواح طبيعية رهيبة ، أو أرواح موتى تظل تحوم بلا هوادة لانها لم تنل الاضحية الواجبة ، أو قوى شريرة تثـير الامراض وتنشر الأوبئة التى تفتك بالناس ، والجنون ، والكوارث الطبيعية ، والفيضانات

---

(٣) قارن على سـبيل المثال مادة « الملائكة » فى قاموس الخـرافات الالمانية :

Handwoerterbuch der deutschen Aberglaubens (HWDA); herausgegeben von H. Baechtoldstaeubli; Bd. 2; pp. 832-839.

(٤) قارن مقال « ملاك » فى دائرة المعارف الاسلامية .

Enzyklopaedia des Islam (4Bde) Leiden; 1913 ff; Art. «Malak».

والزلازل .. الخ . وأخيرا شياطين جنسية تمثل تجسيدا لقوة التحريم المرتبطة بالامور الجنسية . وهى تسبب الاحلام الجنسية ، وتهدد الازواج الجدد ، وتعرقل الجماع والوضع .. الخ .

ونجد الخوف والرهبة من الشياطين أشد ما يكون قوة فى الاديان البدائية ، ثم استمر بعد ذلك فى الاديان القديمة المعروفة . ومن النماذج الخاصة لذلك « الاشرار السبعة » فى الدين البابلى ، وهم عبارة عن كائنات من نار ، تفضل الحياة فى الاماكن الرهيبة الموحشة المهجورة . كما عرف الدين الفيدى أنواعا بأكملها من الكائنات الشريرة . وكان أتباع هذا الدين يتصورونها كائنات فى هيئة بشرية ، ولكنها ذات تشويهات متعددة ، كما كانت تصور على هيئة حيوانية أيضا . ولقد وصلت المعتقدات الدائرة حول الشياطين والارواح الشريرة الى مدى بعيد من التطور والنمو فى الاديان الفارسية القديمة . وكانت تصطبغ فى معظمها بصبغة اخلاقية واضحة . اذ يتحول آلهة سابقون الى أرواح للكذب . ونجد العالم كله عندهم ملىء بالارواح الشريرة التى لا تنبث فى الطبيعة وحدها ، وانما فى البشر أيضا . ويرجع كثير من الباحثين المعتقدات الاسلامية حول الجن الى بعض الافكار والتصورات العربية القديمة عن الارواح الشريرة(٥) .

وتتجسد القوى الشريرة فى صورة ملموسة هى الشيطان . ولقد كان الشيطان — فى صور أولى ومسميات مختلفة — يعتبر عند بعض الشعوب البدائية الخالق الاول للشرور جميعا ، الذى يحاول عرقلة الاعمال الطيبة لآله الخير . ونجد فى الهند أن « مارا » Mara اله الموت هو فى نفس الوضع اله اللذة ، وسيد هذا العالم ، الذى يحاول غواية الناس . وهو بالذات الذى حاول الحيلولة بين بوذا وبين الوحى والالهام .

---

(٥) قارن : ارنست تسبندن : « الجن فى الاسلام ومعتقدات الارواح الشرقية القديمة » .

Ernst Zbinden; Die Djinn des Islam und der altorientalische Geisterglaube; Bern; 1953.

وكذلك الحال — الى حد ما — بالنسبة لاهريمان فى كتاب الافستا المقدس. فكل الاشياء الخيرة التى يخلقها أهورا مازدا ، يخلق أهريمان مقابلها شيئا شريرا . وهو يحاول تخريب العالم ، وتسميم البشر جميعا ، وغوايتهم . والموت هو عماده الاساسى . وواجب المؤمنين جميعا الحرب المستمرة التى لا هوادة فيها ضد أهريمان وجنده .

أما فى الدين الاسرائيلى القديم فان المعتقدات الدائرة حول الشياطين لم تكن من القوة والوضوح الذى كانت عليه عند البابليين أو الفرس . فقد تأثر الدين الاسرائيلى فيما بعد بعض التأثر بهذا النوع من المعتقدات الفارسية . واكتسبت شخصية الشيطان فى اليهودية أسماء متعددة منها : بيل زيبوب ، وبليال ، وأكثر أسمائه على الاطلاق شيوعا : الشيطان . ولقد كان الشيطان فى المعتقد اليهودى أصلا عبارة عن أحد أولاد « ياهواه » — وواحدا من بين سدنة عرشه . كانت وظيفته اقامة الدعوى على الناس ، عاملا على الغواية وتنفيذ نكبات الدهر . وبتأثير فارسى فيما بعد اكتسبت الفكرة اليهودية المتأخرة صبغة ثنائية قوية . وتبدو ثنائية الله والشيطان بكل حيويتها ووضوحها فى يسوع ، وفى المسيحية الاولى كلها . وها هو الانجيل يحدثنا بأن : المسيح قد جاء « لكى ينقض أعمال ابليس » (رسالة يوحنا الرسول الاولى ، الاصحاح الثالث ، آية ٨) . ونجد عيسى يحارب الشيطان فى الصحراء (انجيل متى ، الاصحاح الرابع ، آيات ٨ — ١١) . ومعجزاته فى طرد الارواح الشريرة من أجساد المرضى هجوم مستمر منه ضد سيطرة الشر ، والسعى من أجل التمكين لسيطرة الله (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، آية ٢٠) . وهكذا احتل الشيطان مكانة خطيرة فى فكر وحياة المسيحيين جميعا . وأصبح الرهبان فى الصحراء يعتقدون أنه يتعقبهم حيث هم . فخلق رجال اللاهوت تعاليم كاملة تدور حول الشياطين والارواح الشريرة . وأصبحت هذه الشياطين عبارة عن ملائكة حرمت من النعمة الالهية وكتب عليها الحرمان والطرد من رحمة الله . وعلى المستوى الشعبى ارتبطت المعتقدات الدائرة حول الشيطان بالمعتقدات الدائرة

حول الارواح التى ترجع الى عهد ما قبل المسيحية(٦) .

ونلحظ بعد هذا وجه الشبه الكبير بين الفكرة الاسلامية عن الشيطان ، وتلك الموجودة فى اليهودية ، بدءا من التطابق الاسمى . وقد ربط المعتقد الاسلامى بين هذه الصورة اليهودية وبين المعتقد العربى القديم عن الجن . وحكاية الشيطان (ابليس) فى القرآن معروفة .

ويبدو فى المعتقد الشعبى صدى واضح للاعتقاد فى واقعية الشيطان أو النصر الشيطانى ، هو فكرة لبس الشيطان للانسان ، أو تسلط قوة الشيطان على الانسان . والكائن الملبوس (أو الممسوس أيضا) يكون غير حر من ناحية ، ولكنه من ناحية أخرى يملك قوة خارقة . اذ يستطيع بفضل هذه القوة أن يأتى بالمعجزات ، فينبأ بالمجهول ، ويدل على الخبىء، وعلى رجوع الغائب .. الخ . وهو ما سنعود الى تفصيل الكلام عنه فى الفقرة الثالثة من الفصل الرابع من هذا الباب .

---

(٦) قارن فريدريش هايلر ، المرجع السابق ، ص ص ٤٧٨ — ٤٧٩ . وقد شهد عصر التنوير فيما بعد رد فعل عنيف ضد معتقدات الشياطين والارواح الشريرة .